العلاقات بين الدولة العثمانية ودول المغرب الأقصى ودور الجزائر في أحداث الصراع بينهما

الدكتور الشيخ عدة، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف
echchikh@gmail.com

ملخص:

تتطرق هذه الدراسة إلى موضوع العلاقات العثمانية المغربية ودور الجزائر فيها، والذي يعد من المواضيع الهامة لكونه لا يشير إلى العلاقات بين البلدين فقط؛ بل أنه يدخل في إطار العلاقات بين المغرب الإسلامي والمشرق ككل، خاصةً في حوض البحر الأبيض المتوسط، والتي تحكمت فيه عدة أطراف أجنبية ومنها الأوروبية على وجه التحديد، إذ ارتبطت هذه العلاقات بينهما بظروف، حتّمت عليها أن تتأرجح تارة بين التوتر والصراع، وتارة بين السلم والمهادنة.

ومن هذا المنطلق ارتأينا تقديم هذه الورقة البحثية الموسومة بـــ: العلاقات المغربية العثمانية ودور الجزائر فيها بصفتها إيالة عثمانية، وطرف من الأطراف التي ساهمت في بلورت هذه العلاقات.

فبمَ تميزت العلاقات المغربية العثمانية؟ وكيف كان دور الجزائر فيها؟ وما العوامل التي أثّرت في مجرى هذه العلاقات؟.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية؛ الجزائر؛ العلاقات؛ أحمد المنصور.

Abstract: This study deals with the subject of the Ottoman-Moroccan relations and the role of Algeria in it; which is one of the most important subjects, because it refers not only to the relations between the two countries but also to the relations between the Islamic Maghreb and the Orient as a whole, especially in the Mediterranean Basin, which was controlled by Foreign sides, specifically the European ones; as these relations were linked between them because of some circumstances, which had to oscillate between tension and conflict, sometimes between peace and appeasement.

It is in this context that we have presented this research paper entitled "Relations between the Ottoman Empire and the Maghreb and the role of Algeria in the conflict between them" and one of the parties that contributed to crystallizing these relations.

What characterized the relations between Morocco and the Ottoman? And how was the role of Algeria in it? What factors influenced the course of these relations

Keywords: Ottoman State; Algeria; Relations; Ahmed Mansour

تمهيد:

بدأت العلاقات العثمانية المغربية في التشكل والبروز مباشرة مع دخول العثمانيين إلى الشمال الإفريقي، وكان لها دور هام في مطلع التاريخ الحديث؛ إذ مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي تأسست العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب تزامناً مع بدء حركة المقاومة ضد الإسبان والبرتغاليين في الشمال الإفريقي، وذلك من خلال المساعدات التي قدما الأتراك لسكان المنطقة لتخليصهم من احتلال الدولتين واعتدائهما هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن علاقات المغرب بالدولة العثمانية تكتسي أهمية خاصة، باعتبار أن المغرب ظل البلد الوحيد من بلدان العالم العربي الذي امتنع عن الخضوع للدولة العثمانية، وكون أن المغرب الأقصى كان مسرحًا للصراع بين الدول المسيحية ممثلة في الدول الأوروبية والإسلام ممثلاً في دولة الخلافة العثمانية من ناحية أخرى. ولعل هذا الصراع الذي ظل قائمًا بين البلدين؛ كان في جوهره صراعًا على النفوذ وأحقية الزعامة على العالم العربي والإسلامي في المقام الأول، وهذا ما لم يحدث بين الدولة العثمانية وأي بلد آخر من بلدان العالم العربي سوى المغرب الذي نازعت دوله الخلافة العثمانية في الامتثال لسلطتها الروحية، التي دانت لها كافة أقطار العالم الإسلامي السُّني من المشرق الى المغرب.

فقد سيطر العثمانيون على جل بلدان الوطن العربي منذ مطلع القرن السادس عشر والفترات اللاحقة، وأصبحت دولتهم أقوى وأكبر قوة إسلامية، امتد نفوذها إلى أوروبا وآسيا وإفريقيا وأضحت القوة الأولى القائدة للعالم الإسلامي، لا سيما بعد أن ضمت الأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين إلى دائرة نفوذها، وقضت على حكم المماليك في مصر، إلا أن المغرب الأقصى بقي خارج إطار سيادتها منذ ذلك التاريخ وحتى الاحتلال الفرنسي للجزائر

سنة1830م، واتباعه بفرض الحماية المزدوجة الفرنسية الإسبانية عليه في عام1912م، وهو الذي كان يتطلع إلى قيام وحدة إقليمية مغاربية، مما قاد إلى تناقض وصل الى حد الصراع السياسي والعسكري بين الجانبين.

وبحكم الجوار بين البلدين، كان لابد من وجود علاقات سياسية بين الطرفين، حتى ولو كانت تخضع لمجموعة من المصالح التي تسعى كل دولة لتحقيقها، ومع توالي الأنظمة السياسية في المغرب الأقصى أخذت تلك العلاقات تتأثر بتوجه الأنظمة الجديدة وأهدافها، والذي ستتوضح جوانب منها من خلال المحطات الآتية:

1- العلاقات بين البلدين في عهد الدولة الوطاسية:

تميزت في البداية بمحاولة التنسيق والتعاون ضد العدوان الإيبيري المشترك(الإسباني البرتغالي) على بلدان المغرب الإسلامي، إلا أنها قد انقلبت في النهاية إلى صدام ومواجهات بين الطرفين. وقبل ذلك تجدر الإشارة الى أن المسلمين في بلاد المغرب الإسلامي، لم يستفيقوا من سباتهم وغفلتهم إلا بعد أن خسروا العديد من الحصون والمدن الساحلية التي احتلها الإسبان والبرتغاليين مع بدايات القرن16م.

ففي المغرب الأقصى كان الوطاسيون يواجهون القوتين معاً في نفس الوقت بين كر وفر، وقد كان من بين الخطط أو الإستراتيجيات التي انتهجها الإسبان في تقسيم بلاد المغرب العربي وضرب وحدته، هو بذر الخلاف بين المرينيين والزيانيين، وكان ذلك من أسباب عدم تحركهم وتوحدهم لإنقاذ الأندلس وبدل ذلك دخلوا في حروب ضد بعضهم البعض، كلفتهم خسائر جسيمة، مهدت للأعداء إيجاد موضع قدم لهم في المغرب، لكن الوطاسيين كانوا قد استفادوا من التجارب السابقة فعوض انشغالهم بالتوسع، انشغلوا بالجهاد ومؤازرة إخوانهم المسلمين في المغرب الأوسط.

وقد كان التنسيق بين المغربين الأوسط والأقصى أصبح مهماً وكبيراً خاصةً في عهد السلطان أبي عبدالله الوطاسي المدعو بالبرتغالي، الذي حاول أن يرسل مركبين لإعانة المغرب الأوسط ضد الإسبان سنة(920هـ/1514م)، أيضًا كان اهتمام الوطاسيين بأخبار مملكة الزيانيين واضحاً، حينما دخل العثمانيون بقيادة عروج إلى تلمسان، فخرج منها أبو حمو الثالث الزياني هارباً يطلب منهم العون وهم حكام المغرب الأقصى في فاس آنذاك، فوجدهم منشغلين

بقتال النصارى، فقرر طلب العون من الإسبان، وجاء بجيش كبير كما تقدم، وأخرج عروج من تلمسان (التازي، 1988م، صفحة 191.ج7)[1].

وقد عبر الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه حرب الثلاث مئة سنة عن حادثة خروج عروج من تلمسان، بقوله: "ولما انتهى كل ذلك آوى عروج وبقية رجاله إلى قلعة المشور، فتحصنوا بها منتظرين مددًا، وقد قيل أن عروج كان ينتظر النجدة من قبل ملك فاس الوطاسي المريني، تنفيذًا لاتفاق عقد بينهما، وأن الملك المريني قد أرسل فعلاً جيش لنصرة عروج وتمكينه من الدفاع عن تلمسان ضد الإسبان وأنصارهم، لكن ذلك الجيش سار على طريق مليلة، فطال به السير ولم يتمكن من الوصول إلى ميدان المعركة في الوقت اللازم" (المدني، د.ت، صفحة 190). وما يعزز هذا القول، هو أن عروج فعلاً كان ينتظر المدد بدليل توجهه جهة الغرب في طرق ملتوية نحو الساحل.

ولما مات أبو حمو الثالث، ترك اثنين من ولده هما: محمد عبد الله الثاني(حكم1518م)، وأبو سرحان المسعود(حكم1519م)، فكان الحكم للأول، فثار عليه أخوه أبو سرحان المسعود ودخل تلمسان بمساعدة خير الدين، ومساعدة الوطاسيين أيضاً، الذين أمدوه بالمال والسلاح، كما ورد أيضاً في هذا الصدد أنه بعد هزيمة الإسبان في غزوتهم الكبرى ضد الجزائر التي تعرف بغزوة "شارلكان "سنة1541م، أرسل حسن باشا بن خير الدين برسالة إلى ملك فاس أبي العباس الوطاسي في 05جانفي 1542م دلالة على التضامن بين القطرين، حتى أن السفن الجزائرية قد سمح لها الوطاسيين دخول ميناء تيطوان للتزود بالمؤن (التازي، 1988م، صفحة 307.ج7).

ولما قويت شوكة السعديين بقيادة محمد الشيخ، زحفوا نحو فاس عاصمة الوطاسيين الذين أصبح ملكهم في طريق الإندثار، وكان بها من سلاطين بني وطاس أبو العباس الذي حكم ما بين (1547م–1549م)، فضيق السعديون على فاس وحاصروها مدة أربعة عشر شهرًا حتى اشتكى الناس من شدة ما هم فيه، ورأفة بالناس خرج السلطان الوطاسي إلى محمد الشيخ السعدي وطلب منه الأمان للناس مقابل تسليم فاس له، فأمنه محمد الشيخ السعدي ثم غدر به وقتله وحاشيته بالسم بمراكش، لكن أحد أبناء السلطان المغتال، كان قد فر إلى ناحية الريف قبل موقعة فاس، وأخذ يترقب حتى بلغه مقتل والده وكان ذلك سنة(956هـ/1549م) (مجهول، 1994م، الصفحات 20–22).

فأنطلق الأمير الوطاسي أبو الحسون المريني إلى ملك إسبانيا يطلب منه العون، لكن ملك النصارى رفض أن يعينه بالجند فأعطاه المال وأشار عليه بطلب العون من الترك في الجزائر، قائلا: "وأنت يا سلطان: اسمع ما أقول لك ،ورأي عليك سعيد وتدبيري لك مفيد..يا سلطان أن أعطيتك جيش النصارى لم يبق لك في المغرب ناصح ولا في المسلمين حبيب فتجتمع كلمة المسلمين عليك ... إنما يليق بك أن تذهب إلى الجزائر وتنعم لهم بالمال وتخرج محلة الترك" (مجهول، 1994م، صفحة 21).

وكان ملك إسبانيا من وراء هذا يريد أن يورط الترك العثمانيين في حرب ضد السعديين، فكان له ما أراد، ثم انطلق الأمير الوطاسي إلى ملك البرتغال، فأمده بسفن لبلوغ مراده لكنه أسر من طرف الأسطول الجزائري الذي كان يتوجه إلى صخرة بادس، فقص عليهم ما فعله السعديين بفاس ووعده الصالح ريس بالمدد وتمكينه من دخول فاس شريطة الإعتراف بالتبعية للسلطان العثماني، فجهز الصالح ريس اثنين وعشرين سفينة وثمانية آلاف مقاتل أنزلهم في مليلية، فمر بتلمسان ودخل المغرب الأقصى وانضم لجيشه من المغاربة تحت قيادة أبي الحسون والعديد من أعداء السعديين، ودخل الصالح ريس فاس يوم (8جانفي1554م/3صفر961هـ)، ومكثت الحامية التركية أربعة أشهر بفاس، ثم رجع إلى الجزائر تاركاً حامية صغيرة لحماية الأمير الوطاسي (المدني، د.ت، صفحة 342).

لكن محمد الشيخ السعدي استغل وجوده بمراكش، فأستنفر القبائل، وجمع عددًا كبيرًا من الجند وزحف بهم على فاس، فخرج إليه السلطان أبو حسون، لكنه انهزم إلى أسوار فاس، وحوصر من طرف السعديين حتى ظفروا به، فقتل الأمير الوطاسي يوم السبت(24شوال961هـ/1554م)، وانقرضت بذلك دولة الوطاسيين (الناصري، 2000م، صفحة 161.ج4).

2- العلاقات مع الدولة السعدية:

اتسمت بالتوتر والصدام في غالب الأحيان، وبالهدوء الحذر والتعاون في أحيان أخرى، وقد سجلت فيها عدة هجومات خصوصاً من قبل السعديين على إيالة الجزائر العثمانية من أبرزها:

أ- حرب محمد الشيخ السعدي مع الجزائريين:

بعد سقوط فاس سنة(956ه/1541م) بيده، وجه محمد الشيخ السعدي أنظاره الجزائر، وقرر فتح تلمسان، وما زاده تصميماً، فرار خصمه أبي الحسون الوطاسي إلى الجزائر. يقول صاحب كتاب الاستقصاء: "فرأى الشيخ من الرأي إظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤو،ه فنهض من فاس قاصداً تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر ، وقتل في محاصرتها ولده الحران، وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه، ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين 23 جمادى الأولى سنة(957هـ/1550م)، ونفى الترك عنها، وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي الشلف" (الناصري، 2000م، صفحة 162.ج4).

وفي حقيقة الأمر أن السعديين استغلوا انشغال حسان بن خير الدين سنة1550م، بإعداده لفتح وهران بعدما جهز جيش قوامه ألف رجل من رماة البنادق ومائة فارس و ثمانية آلاف من متطوعي زواوة، فلما كان حسن بن خير الدين بالقرب من مستغانم، بلغه خبر أن السعديين استولوا على تلمسان، فحول وجهته من وهران إلى الإسراع نحو ملاقاة السعديين الذين احتلوا مستغانم وتقدموا نحو نهر الشلف، فألتقى الجيش الجزائري بقيادة حسان قورصو بالجيش السعدي، لكن قوات الشريف السعدي سرعان ما انهارت وتراجعت، فاستغل هذا التراجع من قبل الجزائريين، فتمكنوا من أن يستعيدوا مستغانم، وتقدموا صوب تلمسان، فأرسل محمد الشيخ السعدي مدداً من ألف رجل، والتقى الجيشان مرة أخرى بالقرب من قبة سيدي موسى، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المغربي ومقتل الشريف عبد القادر ابن السلطان المغربي، وانسحب الجيش إلى ما وراء ملوية، ومن فوره دخل الجيش الجزائري تلمسان (المدني، د.ت، صفحة 329).

إن السبب الذي جعل الشريف السعدي يقدم على مثل هذه الخطوة من غزو أراضي الجزائر واحتلال تلمسان ثم طرده عنها؛ إنما جاء من عزمه على طرد العثمانيين من الجزائر وتلبية طلب كبار التلمسانيين في فاس (ألتر، 1989م، صفحة 178).

وفي خطوة لتحسين العلاقات بين إيالة الجزائر والفاسيين سنة1553م بعد واقعة تلمسان، أرسل السلطان العثماني فرماناً إلى إيالة الجزائر يأمر فيه بإيفاد وفد، وكان الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي من أصل جزائري على رأس هذه البعثة، فدخلوا على

السلطان المغربي بمراكش وفاوضوه باسم السلطان العثماني ضمن شروط من ضمنها، الإعتراف بالسلطان العثماني مقابل عدم التدخل في الشؤون الداخلية للمغرب الأقصى، وجمع كلمة المسلمين والدعاء للسلطان العثماني في منابر المغرب، وإطلاق سراح الأسرى من بني وطاس، وتحديد الحدود بين الجزائر والمغرب الأقصى. لكن ملك المغرب رفض كل الشروط وطلبات السلطان العثماني ولم يقر إلا بمسألة الحدود التي تم تحديدها (المدني، د.ت، صفحة 331).

ب – مقتل الشريف محمد المهدي:

لما بلغ السلطان العثماني خبر نهاية دولة الوطاسيين، أرسل رسولاً إلى محمد الشيخ يهنئه بالملك ويلتمس منه الدعاء له على منابر المغرب، فلما بلغ الرسول العثماني مراكش أنزله سلطان المغرب أبو عبد الله الشيخ على كبير الأتراك، وكان من الأتراك الذين انضموا له بعد سقوط فاس في يده بعد زوال دولة الوطاسيين فجعلهم جنده وسماهم اليكشاري (المدني، د.ت، صفحة 360)-أي العسكر الجديد-، فلما اطلع السلطان على الكتاب، وجد به عرض من السلطان يتضمن الدعاء له وصك العملة باسمه، فانزعج وعاتب الرسول وانتهره، فخرج الرسول من عنده مذعورًا وركب البحر إلى اسطنبول، ولما بلغ السلطان العثماني ما كان، أراد أن يرسل حملة للمغرب، لكن الصدر الأعظم راجعه خوفا من أن يستغل الإسبان ذلك، ولعل هذا من ضمن الأسباب. فقد ذكر الأستاذ أحمد توفيق المدني سبباً لإغتيال الشيخ السعدي: "لكن شوكة الشريف السعدي الذي اشتد أمره وقوى ساعده بمراكش، كانت تؤلم جنوب الجزائريين وتقض مضاجعهم، وخاصةً بعد أن نصبوا أبا حسون بفاس تحت حمايتهم وبطش به الشريف بطشة جبارة عاتية، فكيف يتصرفون وهم لا يعرفون ماذا سيكون موقف الشريف منهم، وما أكد خوفهم إقدام السلطان المغربي على مفاوضة الإسبان قصد الوصول إلى اتفاق حربي سياسي ضد دولة الجزائر للقضاء عليها وتقسيم أملاكها بينهما، وتجسد هذا الإتفاق سنة 1555م" (المدني، د.ت، صفحة 360).

فبدل أن يرسل السلطان العثماني عمارة بحرية، تم إرسال اثنا عشر رجلاً، وبذل لهم اثنا عشر ألف دينار، واتصلوا سرًا بصالح الكاهية كبير عسكر الشيخ ووعدوه بالمال، ثم وفدوا إلى الجزائر واشتروا ما يلزمهم لسفرهم إلى مراكش، حتى دخلوا في حضرة السلطان في فاس،

فقدمهم صالح كبير الأتراك للسلطان، وزينهم له في الكلام وأوهمه بأنهم فروا من جند الجزائر، فضمهم إلى جيشه وحرسه الخاص من الأتراك، ومكثوا فترة من الزمن عنده، فلما خرج إلى موضع يقال له -آكلكال- بظاهر تارودانت في نهاية(964ه/أكتوبر1557م)، فانتظروا الفرصة المناسبة بعد خروجه من خيمته لمشاهدة المناورات العسكرية، ولما هم بالرجوع إلى خيمته وقع على الأرض بسبب اصطدام قدميه بحبل الخيمة، فأسرع صالح الكاهية إليه وقطع رأسه بشاقورة، وفصل رأسه عن جسده ووضعه في كيس (المدني، د.ت، صفحة 360).

وقتل الأتراك جميع حراس الشريف بالخيمة التي نصبت على ربوة فوق المعسكر، وأخذوا خيول

الحراس وتحصنوا بحصن تارودانت بعد أن احتلوها. لكن محمد الغالب ابن السلطان المغتال هاجم الحصن وحاصره، غير أن أحد اليهود غدر بالأتراك وفتح أبواب الحصن، ووقع بين الطرفين قتال، ولم ينج من الأتراك إلا القليل، وقتل من جند الغالب ألف ومائتي جندي، واستطاع صالح الكاهية ومن معه من القلة الناجية من بلوغ الجزائر، وركبوا البحر وسلموا الرأس للسلطان العثماني، فأمر بتعليقه على أبواب القلعة في شبكة من النحاس، وكان قتل سلطان المغرب يوم الأربعاء29ذي الحجة سنة (964ه/ 1557م) (الناصري، 2000م، صفحة 35.ج5).

بعد مقتل محمد الشيخ، أراد حسن بن خير الدين باشا استغلال الفوضى في فاس، فتقدم نحو واد اللبن لملاحقة فلول السعديين الهاربين من تلمسان، لكنه اصطدم مع قوات محمد الغالب المؤلفة من أربعة آلاف خيال، فكان القتال خلال اليوم الأول شديداً، ولم يعرف المنتصر من المنهزم من الجانبين ومع انسدال الليل قام حسن باشا بتحصين مواقعه وتحكيمها جيداً، وكان مدركا أن قواته إن واصلت ستنهار، وإن انهارت سيكون ملاحق من قبل الإسبان في وهران، وربما يقطعون عنه طريق الرجعة وكذلك جيش السعديين، فقام بخطة جريئة فأشعل النار في مخيمه في الليل، وانسحب في ظلام الليل وأرسل الفرسان نحو تلمسان، وأنزل الإنكشارية مع المدفعية بحرا حيث كان الأسطول منتظرا (ألتر، 1989م، صفحة 204).

جـــ- استنجاد أحمد المنصور وأخيه عبد الملك بالسلطان العثماني ولجوئهم الى الجزائر:

كان من أولاد محمد الشيخ، عبد الله الغالب، وعبد الملك المعتصم، وأحمد المنصور، ولما توفي سلطان السعديين عبد الله الغالب في(27 رمضان سنة981هـ/1573م) بأزمة صدرية، سلب ابنه محمد المتوكل العرش من عميه أحمد وعبد الملك (ألتر، 1989م، صفحة 204)، وقد كان مقيمين بسجلماسة منذ زمن والدهم، فلما تولى أخيهم الغالب زمام الحكم، فرا إلى تلمسان وبقيا فيها مدة من الزمن خوفاً على حياتهما خاصةً بعدما قتل أولاد عمه الأعرج، وعمه الآخر أبو سعيد عثمان (التازي، 1988م، صفحة 9.ج8).

فلما حكم المتوكل أرادوا الحكم وهم بتلمسان، ولا سبيل لهم في ذلك إلا بجيش يدخلهم إلى سدة الحكم، قال صاحب الاستقصاء:"...فلما توفي وولي الأمر بعده ابنه الغالب بالله، فر عبد الملك وأحمد إلى تلمسان خوفا على أنفسهما منه، فأقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة، ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن فصاروا ثلاثة... ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الجزائر، ومنها ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية (اسطنمبول) منطرحا على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله فأمده بالجند حتى ملك المغرب" (الناصري، 2000م، صفحة 59.ج5).

فكانت وفادتهما على السلطان سنة(982ه/1574م)، وطلبا من السلطان العثماني سليم الثاني بأن يمنحهما المدد لكنه تأخر عن ذلك لانشغال أسطول الجزائر وطرابلس والسلطنة بفتح تونس، فلما تم فتح تونس، أرسل السلطان العثماني معه مدد من الجزائر، وكتب لهما فرمانا لدولتي صاحب الجزائر ليبعث معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الأقصى، فاشترط عليهم الديوان بأن المال سيكون من عند الأخويين أحمد وعبد الملك، والرجال سيكونون من جند الجزائر، فأقترض الأخوين من إيالة الجزائر مالا لتمويل الحملة (الناصري، 2000م، صفحة 63.ج5).

يذكر صاحب النزهة في قضية الإقتراض وطلب الأخوين للمال"...فجاء عبد الملك مع أمه بكتاب السلطان إلى أهل الجزائر يأمرهم بالمسير معه إلى تملك ما كان بيد أبائه، فطلبه أهل الجزائر بالراتب فقال لهم أسلفوني وعلي الخلاص، فأتفق أن يعطيهم عشرة آلاف في كل مرحلة، وكان عدد جيش الترك أربعة آلاف. وقال في شرح الدرة أن عبد الملك طلب من ريس الترك أن يعينه بحصة منهم توصله إلى حد بلاده ليدخلها، إذ الجند كله جند والده فلا يمكن أن يقاتلوه ويضربوه في وجهه لتعظيمهم إياه، فأسعفه على مراده وأرسل معه عصابة وحصة قليلة،

فأقبل بهم إلى موضع يقال له الركن من أحواز بني وارثين من بوادي مدينة فاس المحروسة، فلما سمع محمد المتوكل بقدوم عميه بجيش الترك لقيهم بجيشه، لكن أحد قادته (الافراني، 1888م، صفحة 68) على جند الأندلس انقلب عليه وانضم إلى جيش الترك وعمه، فهاله الأمر وأفزعه فتراجع هارباً.

بعدها فر المتوكل إلى جزيرة بادس ومنها إلى لشبونة، حيث اجتمع بملك البرتغال- سبستيان- فأمده بجيش من أفضل الجند، وحضر على رأس جيشه ومعه السلطان الهارب، فكانت معركة وادي المخازن سنة1578م بالقرب من مدينة القصر الكبير أين فني معظم جيش البرتغال، وقتل سبستيان والمتوكل على يد جند أحمد المنصور (التازي، 1988م، الصفحات 8-9.ج8).

عقب الإنتصار الكبير الذي أحرزه أبو العباس أحمد المنصور، أرسل صاحب الجزائر العثماني رسالة تهنئة وهدايا له، ذكر القشتالي، فقال: "فكان أولهم ورودا على سدته الشريفة وأبوابه العلية المنيعة رسول صاحب الجزائر لاقترابه فبلغ الرسالة وأدى الهدية وكان فيها من فساطيط الهند الغربية الشكل والصنعة وزرابي مبثوثة وطرف نفيسة" (القشتالي، د.ت، صفحة 49).

د- العلاقات مع الدولة العلوية: اختلت في عهدهم العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب، على إثر ضعف الدولة العثمانية وتزعزع قوتها وبداية تفكك وحدتها، مع نهاية عهد السعديين، الذين فقدوا الكثير من قوتهم وبريقهم بعد وفاة أحمد المنصور، وسمح هذا الضعف للعلويين بالبروز كقوة جديدة معادية للأتراك في الجزائر، فقد أبدوا العداء الشديد للدولة العثمانية وايالتها بالجزائر، بل إنهم سعوا جادين للتوسع على حساب أقاليمها شرقاً وجنوباً، في محاولة لإقامة مملكة كبيرة تمتد على كامل بلاد المغرب العربي، وحجتهم في ذلك أصلهم العربي ونسبيم الشريف الذي يخول لهم حق الخلافة الإسلامية بدلاً من حكام الدولة العثمانية الأتراك الأعاجم.

1- في عهد محمد الشريف:

يعود أصل الأشراف العلويين إلى المشرق، وقدم جدهم الأول إلى المغـــرب ســـنة(664ه/1265م) وقد لعب هؤلاء دوراً بارزاً في تاريخ المغرب الأقصى، ففي الوقت

الذي أسس به الأشراف السعديين حكومتهم كانت سجلماسة بأيدي الأشراف الحسنيين، وبعد وفاة المنصور السعدي استغلوا الفوضى وبدأوا يطالبون بالزعامة، بحيث قام مولاي الشريف بالإستيلاء على الإدارة في حكومة الأشراف الحسنين سنة(1024ه/1632م) (الناصري، 2000م، صفحة 19.ج7).

ترك مولاي الشريف الحكومة لابنه محمد، فعمد المولى محمد فور توليه السلطة إلى إخضاع القبائل القريبة منه ومن ثم القبائل الشرقية، وحين لم يتمكن من فاس والمغرب، صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق، فجمع القبائل من حوله وأغار على بني يزناسن، وكانت هذه القبيلة تحت حكم دولة الجزائر، فنهب الأموال وممتلكات العرب، ثم توجه إلى وجده، وكانت منقسمة بين مؤيد له ومؤيد للترك، فاشتغل أتباعه في الإستيلاء على ممتلكات ممن هم تحت حكم العثمانيين، واستولى على وجدة سنة(1060ه/1650م)، وتقدم نحو الشرق وغزا القبائل المجاورة والناحية المجاورة لندرومة، ثم أغار على تلمسان، وعاد إلى وجدة فقضى فيها الشتاء، ثم أغار بعد ذلك على قبائل في أطراف الصحراء (الناصري، 2000م، صفحة 20.ج7).

يقول صاحب الاستقصاء: "ولما انصرم فصل الشتاء خرج على طريق الصحراء فأغار على الجعافرة ونهب أموالهم، وقدم عليه هنالك محمود شيخ حميان من بني يزيد بن زغبة، وهم اليوم في عداد بني عامر بن زغبة.... وقدمت عليه أيضا دخيسة ففرح بهم وأكرمهم، ودلوه على الأغواط وعين ماضي والغاسول فنهب تلك القرى، واستولى على أموالهم، وفرت أمامه عرب الحارث وسويد وحصين من بني مالك بن زغبة، فنزلوا بجبل راشد متحصنين به فرجع عنهم، فلما بلغ الخبر مسمع باي معسكر، أقام تحصينات وبعث بطلب المدد من الجزائر، وأرسل الأتراك جيشاً إلى تلمسان، لكن المولى محمد انسحب إلى وجدة ومنها إلى سجلماسة بعدما خرب الغرب الجزائري" (الناصري، 2000م، صفحة 22.ج7).

ولما رأى الأتراك ما فعله المولى محمد، عزموا على مراسلته لإيقافه عند حده، فبعثوا إليه بوفد من كبار القادة الأتراك، واثنين من علماء الجزائر وأبلغوه الرسالة، فلم يجبهم، ثم عادوا إليه وطلبوا منه الرد وذكروه بخصال آل بيت النبي، وأن ما فعله تعدي وظلم،

فأعطاهم عهداً وميثاقاً بأن لا يجتاز إلى الشرق مجدداً ولا يتعدى حدوده مرة أخرى وكانت الحدود حينها نهر تافنا بتلمسان، وتم الاتفاق بين الطرفين سنة(1059ه/1649م) (الوزان، 1983م، صفحة 250.ج2).

2- عهد المولى إسماعيل:

بعد وفاة مولى الرشيد حاكم فاس يوم الأربعاء16ذي الحجة 1082ه/1671م، وكان سبب موته أنه ركب فرساً جموحاً، فإنطلق به ولم يتمكن من لجامه فأرتطم بشجرة فأردته قتيلاً (الافراني، 1888م، صفحة 304)، فخلفه مولى إسماعيل وكان خليفة له بفاس الجديد، فعمل على إقامة حكومة قوية، وقضى على التمردات الداخلية، كتمرد ابن أخيه أحمد بن محرز بن الشريف في مراكش، الذي كان يتلقى الدعم من الأتراك في الجزائر، وتمرد شمال فاس سنة(1083ه/1672م)، ثم التفت إلى جهة الشرق، وأخذ يدعم المتمردين في تلمسان لإثارة الشغب، لكن القوات الجزائرية قضت على هذا التمرد (ألتر، 1989م، صفحة 347).

في المقابل وردًا على ما فعله مولاي إسماعيل، قام الجزائريون بدعم حركات التمرد، وإثارة التمردات على حكم إسماعيل، وانشغل بمحاولة القضاء على تمرد الدلائيين بقيادة أحمد بن عبد الله الذي حرض البربر على التمرد في مراكش، وسعى إلى إسكات الدلائيين بمنحهم عدة مناصب للتفرغ لأبن أخيه في مدينة مراكش وحصاره، لكن ابن أخيه تمكن من الفرار إلى السوس(1088ه/1677م)، وبعد أن أدرك أن الجزائريين كانوا السبب في إثارة التمردات، جهز حملة سنة(1090ه/1679م)، وزحف بها شرقاً وانضمت له عدة قبائل في الطريق حتى وصل نهر الشلف، فتصدت له قوة عسكرية من الجزائريين والعثمانيين، وفي أثناء المعركة انسحبت القبائل المرافقة له ولم يبق معه إلا جيشه، فاضطر إلى عقد الصلح والرجوع إلى ما وراء حدوده، وأقام على الحدود بين المغرب الأقصى والجزائر عدة حصون للمراقبة والدفاع، فبعد ذلك تفرغ للقضاء على التمردات الداخلية خاصة ابن أخيه أحمد ابن محرز في منطقة السوس الذي كان متعاون مع الأتراك (الزياني، د.ت، صفحة 17).

كما قرر مهاجمة الجزائر للمرة الثانية، فإجتاز الحدود وأغار على قبيلة بني عامر الموالية للأتراك ثم عاد إلى مكناس، لكن الجزائريين ردوا عليه بالمثل فعبروا الحدود وأغاروا على عدة

قبائل تابعة لحكم المولى إسماعيل، وفي المقابل كان رده بأن قاد جيشه باتجاه تلمسان، مستغلاً في ذلك ظروف الهجوم الأوروبي الفرنسي على شرشال، وحاصرها وطلب منه أمير الأمراء لإيالة الجزائر الإنسحاب والرحيل عن الأرض الجزائرية، وسرعان ما فك الحصار وعاد إلى سوس للقضاء على تمرد ابن أخيه أحمد بن محرز، وبعد مقتل أحمد بن محرز في سوس سنة(1096ه/1678م)، اشتغل المولى إسماعيل بتنظيم شؤون دولته، وتفرغ بعدها للتحالف ضد الجزائر، فحاول الإتفاق مع الفرنسيين فعرض على الملك الفرنسي الزواج من إحدى بنات عائلته بغية الاتفاق مع فرنسا (ألتر، 1989م، صفحة 440).

وحينمالم يتم له هذا الإتفاق، قرر الإتفاق مع التونسسين بإعتبارهم كانوا في خلاف مع الجزائريين، فإتفق معهم على مهاجمة الجزائر، لكن الداي شعبان علم بالإتفاق، فقرر مهاجمة التونسيين وألحق بهم هزيمة، ثم عاد بإتجاه الغرب لمواجهة الفاسيين، فأرسل سلطان المغرب جيشاً من مكناس إلى تلمسان يضم أربعة عشر ألف جندي مشاة وثمانية آلاف خيال، وعدد من المدفعية، ولما بلغ وجدة علم بقدوم قوة تركية نحوه فأنسحب، وكان الجيش التركي مؤلفاً من عشرة ألاف جندي وثلاثة ألاف خيال وعدد من الطوابير الزاحفة، واستمر الجيش التركي الجزائري في ملاحقته حتى ملوية أين ألحقوا بجيش المولى إسماعيل هزيمة انتهت بفقدانه خمسة آلاف جندي، وفر جيش الفاسيين ولحق بهم الجزائريون حتى أسوار (Grammond، 1882، الصفحات 130 ,138)فاس، ثم عادوا إلى الجزائر سنة(1104ه/ 1693م) محملين بالغنائم، وتم معاقبة القبائل التي انضمت للفاسيين (ألتر، 1989م، صفحة 440).

بعد هذه الأحداث، أرسل إسماعيل إلى الجزائر وفد مكون من ابنه عبد المالك والمرابطي طيب بن محمد الفاسي لعقد الصلح وتم له ذلك، ولكنه كان في نفس الوقت منزعجاً من الهزيمة التي لحقت به ففي9ربيع الأول سنة1106ه الموافق ل29أكتوبر1694م، أوعز لإبنه زيدان بمهاجمة الجزائر، فأغار على بعض القبائل الحدودية ثم عاد مسرعاً، وبعد هذه الأحداث أرسلت الدولة العثمانية وفد تطلب من المولى إسماعيل إقامة الصلح مع الجزائر، فقبل بذلك ورحب به سنة(1111ه/1699م)، فقسم الحكم على أولاده، فأعطى منطقة تازة لأبنه زيدان فتحرك لمحاربة الجزائر بإيعاز من والده، وكان هجومه بالموازاة مع هجوم أمير تونس مراد بك على قسنطينة سنة(1112ه/1700م) (بن قايد، 2012م، صفحة 148)،

فوصل زيدان إلى معسكر ودخلها وسلب أهلها ونهب دار البايلك، وعقد الصلح مع الجزائريين لتهريب ونقل غنائمه إلى بلاده، فأثار ذلك غضب والده فعزله، لأنه لم يستفد من انتصاره، وخرج بنفسه بجيش كبير واتفق مع التونسيين لمهاجمة الجزائر، واجتمع جيش الفاسين مع التونسين، وجيش الداي مصطفى من جهة أخرى في إحدى المناطق الواقعة بين سطيف وقسنطينة بتاريخ(03 أكتوبر1700م/ 1112ه)، وتمكن الداي مصطفى من إلحاق الهزيمة بالفاسيين والتونسيين، إذ أن تعداد جيش الفاسيين كان حوالي خمسين ألف جندي، وقد بدأت المعركة ظهيرة20ذي القعدة1112ه الموافق ل28 نيسان 1700م، وجرح المولى إسماعيل في هذه المعركة، وأسر من جيشه ثلاث مائة جندي وخمسين قائدًا (ألتر، 1989م، صفحة 147).

وحين يأس المولى إسماعيل من إمكانية تحقيق أي انتصار على الجزائريين، حاول عدة مرات الهجوم على وهران لتحريرها من قبضة الأسبان في الفترة الممتدة من(1107ه/1699م)، فهاجم عدة حصون، كحصن– وزا الكزار–، لكنه فشل بسبب قوة التحصينات الإسبانية وخسارته الفادحة، هذا الأمر كان كفيلا بإثارة ارتياب الأتراك من تدخله المستمر في شؤون الجزائر، فقد أرسل السلطان العثماني مصطفى الثاني بن محمد(1106ه/1703م) ضمن سفارة عثمانية إلى المولى إسماعيل مؤرخة في (1696م/1704م)، جاء فيها: "لقد ورد علينا كتابكم الذي يعبر عن الود والصداقة المتوارثين فيما بين الأمتين... وأنه حين جلوسنا على العرش، ونحن نقوم بأنفسنا على تقرير قواعد الملة خدمة لمصالح الأمة، ورفعاً لراية الجهاد وحماية للثغور الإسلامية، وأننا لن نسمح بقيام المحظورات الشرعية في بلادنا"، ثم أعاد السلطان العثماني مراسلة المولى إسماعيل في رسالة أخرى في22شوال1110ه/22 أفريل1699م باللغة التركية جاء فيها: "أن الجزائر ضمن ممالكنا المحروسة ... وإن سكان البلاد وأهلها وحكامها وجندها منقادة من بعد أجدادنا لنا..وإنه ما تزال توجد مليلية، والبريجة، وسبتة وبادس، وهي تقع في جوار تلمسان، ووهران تريدون أن تحوزوها بأعذار واهية..." (بن قايد، 2012م، صفحة 148) وعندما فتح الجزائريون وهران بعث المولى إسماعيل رسالة تبريك وتهنئة إلى استانبول (ألتر، 1989م، صفحة 147).

خاتمة:

تباينت أشكال وطبيعة العلاقات السياسية بين العثمانيين بالجزائر مع الدول المتعاقبة على المغرب الأقصى عبر المراحل، وحسب الظروف التاريخية والسياسية وحتى الإقتصادية، فكانت توجهات الوطاسيين توجه سلمي يطمح لتوحيد الجهود في مواجهة الأطماع الأجنبية الإسبانية والبرتغالية.

أما في العهد السعدي، فقد أثر محمد الشيخ السعدي بأطماعه التوسعية على العلاقات الحسنة ووظف الأغراض الشخصية على حساب المصلحة المشتركة بين المسلمين، فقد كانت نظرته للوجود العثماني في الجزائر نظرة عدائية واعتبرها احتلال وجب شن الحملات عليه وذريعة لشن حملاته لتحقيق أطماعه.

وأما في العهد العلوي، فقد استهلها العلويين بالتوسع على حساب القطر الجزائري في عهد الرشيد أملا في اكتساب أرض جديدة، خاصة وأن المغرب الأقصى كان يشهد صراعاً داخلياً، ورغم ذلك أكد حكام العثمانيين بالجزائر مراراً على ضرورة إقامة علاقات سلمية من خلال التفاوض، أما في عهد المولى إسماعيل فكان موقف الجزائر موقف دفاع ضد الحملات المغربية المتتالية، وبمجرد انتهاء عهد إسماعيل تراجعت حدة التوتر بين البلدين.

في ذات الوقت وفي الجانب الإقتصادي، فقد ظلت العلاقات مستمرة وقائمة، وكانت الموانئ تسهم في تعزيز الروابط التجارية بين البلدين، ونذكر ميناء مدينة سلا فكانت منفذ على المغرب، كما هو الحال لتلمسان على الطريق البري.

وأخيرا يمكن القول بأن هذه العلاقات، قد شهدت عدة توترات نتيجة أطماع التوسع خاصةً من قبل المغاربة، فكانت لدى السلطان مولاي إسماعيل رغبة في التوسع نحو الشرق أي على حساب أراضي الجزائر، وبسبب ذلك وقعت عدة حروب ومواجهات بين الجيشين، كما وقعت عدة مناوشات من طرف أتراك الجزائر حول الحدود المغربية ولمساندتهم لثورة ابن محرز، وقد سارت بينهم عدة سفارات وتم عقد عدة اتفاقيات صلح، كما كانت مساندة بعض عناصر من أتراك الجزائر للجيش العلوي الإسماعيلي عند تحرير ثغوره، وقد لعبت الروابط الدينية دوراً كبيراً في هذه العلاقات كما أن التعاون بين البلدين فيما يخص عملية الجهاد وكذا التجارة قد ظل قائماً.

المصادر والمراجع:

1- العربية:

الافراني ,محمد .1888 م . نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، د.ط ، .انجى : مطبعة بردين.

ألتر ,سامح. 1989 م. الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، ط1، بيروت ، لبنان : دار النهضة العربية.

الزياني ,أحمد. د.ت . الترجمان المعرب في أخبار دول مراكش والمغرب . د. ط .ب

القشتالي ,أبي فارس . د.ت . مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرف . د.ط . المغرب : مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة.

المدني ,توفيق . د.ت . حرب الثلاث مائة سنة بين الجزائر واسبانيا، د.ط ، الجزائر :الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

الناصري . أحمد. 2000 م، الاستقصاء الأخبار لدول المغرب الأقصى . د.ط ، الدار البيضاء ، المغرب : دار الكتاب.

الهادي ,التازي .ع1988 م. التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، د.ط ، المغرب : أكاديمية المملكة المغربية.

الوزان ,حسن. 1983 م . وصف افريقيا، ط2 . بيروت : دار الغرب الاسلامي.

بن قايد ,عمر. 2012م . أضواء على علاقات الجزائر مع المغرب الأقصى خلال القرن11هـــ/17م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية ,العدد 17. ص ص146. 148

مؤلف مجهول. 1994 م . تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية ، تحقيق : عبد الرحيم بن حمادة ، ط1، . مراكش : دار تينمل للطباعة والنشر.

2-الأجنبية:

Grammond(Hde), un épisode déplomatique a alger au xviii e siécles, paris,1882